دراسات الأدب المعاصر، السنة السادسة، خریف ۱۳۹۳، العدد الثالث والعشرون: صص ۷۳- ۸۹

القصص الموضوعة فی العبرات؛ دراسة تحلیلیة

مجید صالح بک*
مینا عربی**
نسیم عربی***

تاریخ الوصول: ۹۲/۷/۲۳
تاریخ القبول: ۹۳/۱/۲۷

الملخّص

یعد *المنفلوطی* من الکتاب المصریین فی بدایة القرن العشرین وکان أجلّ اهتمامه فی کتاباته القضایا الاجتماعیة والفکریة. فربما ینبغی أن نعده مفکراً قبل اعتباره أدیبا حیث کانت مؤلفاته ولا تزال موضع اهتمام الأدباء والقراء وجل هذا الاعتناء ینصبّ علی الناحیة الفکریة والمضامین المطروقة فی قصص هذا الأدیب فأهمل الجانب الفنی لها رغم اتصاف کتاباته بحسن الصیاغة وجزالة النص وجمال التعبیر؛ و لربما کان جذور هذا الإغفال فی الرأی السائد بالنسبة لآثار هذا الأدیب أنه لا تجمع فیها عناصر القصة. فحثنا الأمر علی القیام بدراسة نقدیة تحلیلیة لطرف من قصصه فی کتابه «العبرات» فاخترنا القصص المؤلفة علی یده حیث تمکّن من التعرف علی أسلوبه ومیزات عمله الفنی. تتابع المقالة هذه باتباع المنهج التحلیلی الوصفی دراسة نقدیة تحلیلیة لهذه القصص کما تحاول الاستقصاء عن المنهج الذی اتبعه *المنفلوطی* فی صیاغة هذه القصص.

الکلمات الدلیلیة: المنفلوطی، العبرات، القصص الموضوعة، الیتیم، الحجاب، الهاویة.

* عضو هیئة التدریس بجامعة العلامة الطباطبایی. msalehbek@gmail.com
** طالبة الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها. mi_arabi@yahoo.com
*** عضو هیئة التدریس بجامعة المذاهب الإسلامیة. dr.nasimarabi@gmail.com

المقدمة

يعتبر القص فن نثرى متميز، عبارة عن مجموعة من الأحداث تتناول حادثة وواقعة واحدة، أو عدة وقائع، تتعلق بشخصيات إنسانية منها وأخرى مختلفة –غير إنسانية. مادة القصص أو مواضيعه؛ متعددة ومتنوعة، وذلک بغية التسلية والمتعة، أو حتى الوعظ والإرشاد، أو شد الهمم، وكان العرب يستمد قصصهم ومواضيعهم من حياتهم، مواقفهم، نزالاتهم، وموروثهم الثقافى مما تناقل إليهم عبر الرواية من الأسلاف. ولكل قصة عنصر سائد يميزها، فكل قصة نقرؤها قد تترک فى النفس أثراً أو انطباعا ما، قد ينتج عن الأحداث أو الشخصيات،أو عن فكرة ما... ذلک الانطباع هو العنصر السائد وهو المحرک فى القصة، وهو لا يمكن تحديده بدقة. أما عناصر القصة هى الحبكة، والأحداث، والشخصية، والحوار، والزمان والمكان (انظر: بلوافى مَحمد). وهناک أنواع مختلفة من القصة فى ناحية الموضوع والأسلوب والمساحة، فهناک قصص اجتماعية وسياسية وقصص الحب والمغامرات، كما ثمة قصص واقعية ورومانسية ورمزية و...، وتنقسم القصة حسب مساحتها إلى الرواية، والقصة، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جدا.

أما قصص *المنفلوطى* التى اتخدناها موضع الدراسة فتندرج ضمن القصص القصيرة الواقعية التى تعتنى بالقضايا الفكرية الاجتماعية. اعتنى *المنفلوطى* بالجانب الفكرى فى مجتمعه وحاول من خلال كتاباته حث أبناء شعبه إلى الأخذ بتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية، وعدم الخضوع والاستسلام لما داهمتهم من الأفكار الغربية التى ظل المجتمع المصرى يواجهها فى نهايات القرن التاسع عشر بعد أن كان خاضعا لحكم الأتراک لمدة طويلة؛ هذا من جانب ومن جانب آخر بذل هذا الكاتب جهوده لتعديل الفكر الدينى لدى أبناء شعبه وتعريفهم على التراث الدينى البعيد عن العصبيات، والذى يأمر بالعدالة الاجتماعية و ينهى عن ظلم الحكام وضيم الغنى للفقير البائس ويحث على السلوک الحسن والحب والتثقيف.

أما فى البحث عن الدراسات المرتبطة بموضوع المقالة هذه، وجدنا أطروحة جامعية تحت عنوان «ترجمه ونقد العبرات» من تأليف *ليلا اسماعيلى*، ثم مقالة «بدبينى منفلوطى» *لجوانرودى*، ومقالة «بدبينى و بازتاب آن در آثار مصطفى لطفى منفلوطى» من إعداد *مظفر اكبرى مفاخر*، و أطروحة *أكبر سليمى* تحت عنوان «مضامين اخلاقى و

اجتماعی در آثار منفلوطی»؛ کما استعنّا فی التعرف علی الجانب الفکری للکاتب بمقالة «مصطفی لطفی المنفلوطی؛ الأدیب الاشتراکی» من إعداد محمد *شلبی*، وکذلک «المنفلوطی؛ کاتبا سیاسیا» *لمحمد شبلی*، غیر أن هذه المصادر ترکّز علی موضوعات غیر ما علیه الآن ولایزودنا بما یعتدّ به من الآراء النقدیة فی مجال ممارسة فن الکتابة القصصیة فی هذا الکتاب فاستعنا بالله فی خطو أول خطوة فهو نعم العون.

وقبل کل شیء ینبغی التعرف علی حیاة *المنفلوطی* الأدبیة ضمن الموضوع التالی:

حیاته الأدبیة

مصطفی لطفی المنفلوطی (۱۸۷۶-۱۹۲۴) أحد کتاب مصر الذین علت شهرتهم وعظم تأثیرهم فی الربع الأول من القرن العشرین، وقد ظل طوال حیاته الأدبیة معروف المکانة شامخ الشخصیة برغم ما وجه إلی أدبه من نقد وانتقاص، من جانب بعض الکتاب البارزین الذین عاصروه مثل الأساتذة *طه حسین* و*المازنی* وغیرهم، وکان *المنفلوطی* یمثل إلی حد کبیر أفکار عصره، ویصور فی کتاباته مشاعره وکان من الکتاب الذین یتوخون الإصلاح جهدهم، ویحاولون تعرف العلل التی فتت فی أعضاد أمتهم وقصرت بها عن نیل المراغب وتحقیق الآمال والمطالب، وکان یرمی بکتاباته إلی السموّ بالعواطف وتفجیر ینابیع الرحمة فی القلوب، والحث علی فعل الخیر ویحاول بقلمه أن یکف عادیة الفقر ویقلم أظفار الجهل، ویحنو علی البائسین المعذبین والمصابین والمنکوبین، ویستدر لهم العطف ویلین لهم القلوب القاسیة المتحجرة ویسترعی الأنظار إلی ما یعانون من هم وکرب، وما یتجرعون من غصص وآلام. وکان یصرح فی کتاباته بأنه لا یهمه أمر الخاصة ولا یحفل برضاهم ولا یبالی سخطهم، فهو یکتب لیصلح الفاسد ویقوم المعوج ویعالج العلة ویزیل البؤس ویحارب الأفکار الزائفة والعقائد الفاسدة.

الدراسة التحلیلیة

الموضوع

قصة «الیتیم» تتحدث عن مصیر شاب مصری یعیش فی بیت مجاور لبیت کاتب القصة کما وصف لنا المشهد. فتی یتیم عشق ابنة عمه ولکن لم یصرح بهذا الحب إذ کان یری فقره ما یمنعه من الزواج من ابنة العم الثریة، فترکها إثر طلب زوجة العم المتوفی

منه، ذلک دون أن يودع ابنة عمه ويكشف عن خوالج صدره لها. ثم أغرق نفسه فی الدراسة هروبا من ذكرياته الحلوة فی بيت عمه إلی أن أخبر بوفاة ابنة العم شوقا لزيارته وحزنا علی فراق الحبيب. فإنها كانت تكنّ لابن عمها حبا دون أن تنبس به، فمات الشاب تبعا لسماع الخبر. وهكذا نجد أن القصة تركز علی معالجة إحدی مشاكل المجتمع المصری وكيف يحول الفقر دون سعادة الناس بل يسوقهم إلی الموت الحزين فی ربيع أعمارهم، وكيف يؤدی اليتم إلی شقاء شاب موهوب دؤوب وأنه ليس هناک من يقوم بشأن الأيتام حيث يساعدهم فی حياة طيبة ويمهد لسعادتهم.

أما قصة «الحجاب» فتدور حول أفكار رجل متغرب قادم من اوربا يری حجاب المرأة سدا دون حضارة المجتمع: «فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادی القديم الذی وقف سدا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرا طويلا»(المصدر نفسه: ۴۴)، كذلک تنقل إلينا القصة أفكارا دينية تشجع الحجاب صونا لكرامة المرأة وحفظا لنظام الأسرة يلقيها الكاتب بصفته صديقا للرجل المتغرب فيتحدث فی مجال الحجاب من موقف عالم دين يعرف زوايا رضوخ الشيطان إلی قلوب الناس فينذرهم إياها.

القصة مستمدة النواة من واقع المجتمع المصری فی بداية القرن العشرين حيث عاشها *المنفلوطی* الكاتب، وعانی الظروف الجديدة الطارئة علی المجتمع والتی كان يراها غير صالحة لأبناء شعبه فأبدی آراءه و بذل جهده فی إرشاد الأمة وتنبيهها لعواقب اتباع الثقافة الغربية فتندرج القصة ضمن القصص الكلاسيكية.

القصة الثالثة الموضوعة فی كتاب «العبرات» عنوانها «الهاوية» وهی قصة رجل زلت أقدامه علی شفا حفرة هاوية، بمعاشرة شارب خمر اتخذه صديقا ليكون نديمه فی مجالس لهوه، فنزل مما كان عليه من الشرف والعزة بين الأهل وفی المجتمع وقد أدّی به الخمر إلی الإغفال عن الأهل فانتهی الأمر إلی موت الزوجة وطفلته الرضيعة التی قتلها بوطئ صدرها وتشرد أولاده وتقيد نفسه مغلولا فی المارستان.

أما «العقاب» وهی القصة الموضوعة الأخيرة فی كتاب «العبرات» تختص بقضية الظلم الموجه إلی المظلوم من جانب الحاكم الظالم. استمد *المنفلوطی* نواة هذه القصة من خياله فهی حكاية رؤيا حلم به، ثم الحلم هذا له عدة مشاهد. المشهد الأول يصور ساحة محكمة يصدر فيها القاضی أحكام ظالمة بشأن الذين جروا إلی المحكمة بصفة المجرمين

وما هم بمجرمين فی الحقيقة إذ سرق أحدهم لسد جوع أحفاده الجائعين الأيتام بعـد أن حرمه الكاهن من التصدق عليه بأرغفة خبز؛ والآخر فتی قتل من تعـرض لشـرفه وعرضـه والأخری فتاة اتهموها بتهمة الزنا وأمر القاضی بقتل الجميع ففعلوه.

المشهد الثانی يقص علينا قصة إلقاء القبض علی الشيخ المـتهم بتهمـة السـرقة کيـف اضطر إلی السرقة بعد أن يأس من التمتع بصدقة الکاهن، وکيف قتـل مظلومـا وهـذه مـا حکته للکاتب زوجته العجوز التی حضرت جنازته لتواريه تحت التراب. ثـم تنتقـل القصـة إلی المشهد الثالث وذاک کسابقه قصة حضور أهـل الميـت علـی جنازتـه لدفنـه بعـد أن صلبوه علی جذع النخل، وترکوه قتيلا غارقا فی دمه يموت فی سبيل الـدفاع عـن عرضـه والمشهد الأخير يحکينا قصة الفتاة المرجومة کيف قتلت بريئة بتهمة الزنا.

الشخصية

بطل القصة فی قصة «اليتيم» فتی شاحب نحيل منقـبض يـدرس فـی أحـد المعاهـد يعانی الفقر واليتم حيث يصف نفسه: «أنا فلان بن فلان مات أبی منذ عهد بعيد، وترکنـی فی السادسة من عمری فقيرا معدما»(المنفلـوطی: ١۶)، والملاحـظ فـی هـذا الوصـف أن البطل لم يسم باسم خاص ترکيزا علی فقره ويتمه، وأنه لا يختلف أبناء البشر من کانوا إذا سجلوا فی عداد الفقراء والأيتام فإن مصيرهم لا يختلف کثيرا عن هذا البطل حيث ينتهی أمرهم إلی الشقاء وربما إلی الموت الحزين.

إن الشخصيات فی هذه القصة کلها ثابتة فلا نجـد تغييـرا فيهـا حيـث لا يبـذلون أی جهدا لتغيير الظروف إلی مصالحهم بل يخضعون للمصير، ولا يختلـف ذلـک مـن الشـاب الفقير إلی الفتاة الثرية فکل منهما محبوس فی سجن التقاليد التی لا تسمح لهمـا بالبـث بما فی القلب. فنجد الشاب قد انهمر فی الدراسة بدافع نسيان الماضی: «وأن أستعين علی نسـيان الماضـی باجتنـاب موطنـه ومظـاهره فلزمـت غرفتـی ومدرسـتی أداول بينهمـا لاأفارقهما»(المنفلوطی: ٢٠).

فلم يقرر فی نفسه مثلا أن يجتهد فی الدراسة آمـلاً فـی مسـتقبل أفضـل بـل اتخـذ الدراسة وسيلة لنسيان الآلام. وعجيب أن الحب ساق کلا الفتيين إلی الموت فهـذا الحـب کان مميتاً بدل أن يکون مولدا. کأن الکاتب لا يجد فی ثقافة مجتمعه نهاية لقصة هـذين

إلا الذى رسمه وهو بذلک يصور المجتمع المصرى جامدا طبقيا، لا سبيل فيه لرفع المستوى من طبقة إلى أخرى أعلى والمرأة يرسمها الكاتب محبوسة فى سجن من التقاليد القاسية التى لاتسمح لها بالحديث عن نفسها وعما يدور فى قلبها ولو لأمها.

أما بالنسبة لشخصيات قصة «الحجاب» فهناک رجل متغرب بدوره مدافع عن اتباع القدوة الغربية فى الحياة، وهو من الشخصيات الرئيسية والذى نشاهد تطوره حيث يختلف فى نهايات القصة عما كان عليه فى بداياتها، وذلک بعد أن طرأ عليه حادث خلو زوجته بصديقه فأدرک مغزى كلام صديقه وصدّقه. ثم هناک الصديق أو المؤلف الذى يلعب دور المرشد الدينى ويدافع عن الحجاب فى حدود أفكاره. كذلک هناک شخصية هامشية وهى زوجة الرجل المتغرب فإنها مهما كانت القضايا تدور حولها بصفتها مرأة شرقية تلتزم خدرها ولكن لا نجد لها حضورا واضحا فى القصة، ولا عجب فى ذلک فإن الرجال يقررون المصير لنساء هذا المجتمع الذى رسمه لنا المؤلف وصورة هذه الزوجة صورة امرأة حمقاء جامدة الفكرة متحجرة. وهى شخصية تتغير من امرأة ملتزمة إلى امرأة سافرة تكاد أن تكون عاهرة ثم يقضى الله لها بالفلاح فتعود إلى رشدها، ولكن كل هذه التغييرات ليس لها فيها دخل بل هى تابعة لتحولات أفكار الزوج ومن هذه الناحية فلا تغيير فى شخصيتها فإنها تبقى من البداية إلى النهاية فى صورة موجود تبعى ليس له إلا تطبيق أفكار الآخرين ولا فكرة له.

ومن الملاحظ فى هذه القصة أن الرجل المتغرب فى بداية الأمر لا يرى سبيل المرأة السافرة إلى الفضيحة والعار، إلا إذا كانت وضيعة لا صلة بينها وبين الشرف، وفى نهاية القصة عندما يجد زوجته وصديقه عثر عليهما فى مكان ريبة وفى حال غير صالحة يتحول من أساس ويوجه رأس سهام اللوم إلى نفسه ويرى نفسه السبب فيما حدث لزوجته إثر خلع الحجاب وهذا تحول فجائى لا ننتظره، لأنه كان يعتقد أن سبب عهارة المرأة نفسها وضعتها ثم يرجع عن هذا المعتقد الذى كان يبدو راسخا فيه ويتهم نفسه ويستغفر لذنبه.

وفى قصة «الهاوية» فإن الشخصية الرئيسة هو الرجل الذى تدور القصة حوله وهو فى بداية الأمر، وقبل انقطاعه عن المؤلف - الذى يحكى القصة بصفته صديق الرجل الشقى- كان أبا رحيما وزوجا كريما ورجلا نبيلا شريفا غيورا ضنينا بعرضه وشرفه ساذجا اجتمعت فيه خلال الخير. فأخرجته فى صورة من صور الكمال الإنسانى فى وجه إنسان ثم تحول

إلی أب قاس وزوج سلیط یضرب الأولاد ویشتم الزوجة وینتهرها وشارب خمر مقامر مستهتر منقطع عن الأهل والأولاد والمنزل لا یحتشم ولا یتقی عارا ولا مأثما.

أما بالنسبة لعنصر الشخصیة فی قصة «العقاب» فإنها ثابتة وغیر فاعلة حیث لا مجال لها للتغییر والتحول فی المشاهد التی رسمها الکاتب، وقصد بها الإشارة إلی الوضع المسیطر علی العالم آنذاک حیث تفعل الأمم القاهرة فی الدول الضعیفة ما تشاء.

المشهد

تدور قصة «الیتیم» داخل المدینة وقریبا من بیت الکاتب مما یوحی بأن الفقر والغنی توأمان والبؤس والسعادة قریبان من بعض قرب الجیران.

والزمان فی القصة مستدیر حیث یعود الکاتب بعد سرد قصة التقاءه بالشاب المشرف علی الموت، إلی روایة قصة الحب الماضی الذی وقع فیه الشاب من ابنة عمه. ثم عاد إلی الزمن الحاضر ثانیة فأکمل حکایة مصیر الشاب الفقیر فنجد فیها نوعا من الاسترجاع.

لقد أفاد الکاتب من ألوان فاتحة متلألأة، للإشارة إلی السعادة والرخاء وألوان داکنة مظلمة للتلمیح إلی البؤس والشقاء، لکن الغلبة للألوان الغامقة إذ الحدیث عن البؤس الحاضر المقیم والسعادة الزاهقة البائدة.

أما الزمان فی قصة «الحجاب» فخطی تسلسلی یبدأ بزمن فی الماضی ویمتدّ إلی الزمن الحاضر والأحداث متتابعة.

تحدث قصة «الهاویة» فی موطن المؤلف مصر وزمانها قریب من الحاضر؛ فإدمان الرجال وأحیانا النساء قضیة کنا وما نزال نعالجها کمشکلة عظیمة تهدد کیان الأسرة وتعرض مستقبل الأولاد لأخطار جسیمة فیمکن اتصاف القصة بالشمولیة، ثم ثبت أن دور المرأة هام فی توجیه مصیر الأسرة وإرشاد الأبناء.

أجواء هذه القصة وألوانها کلها داکن مظلم من البدایة إلی النهایة، وإذا وجدنا ضوءً فیعود هذا الضوء إلی عقد سابق، ولم یبق له اثر فی الحاضر وذلک عند المواقف التی یتذکر المؤلف أو الزوجة ماضیهما مع الشخصیة الرئیسة. وکذلک یحدث کل الأحداث المرة المؤلمة فی اللیل المظلم الموحی بالهاویة.

وتحدث قصة «العقاب» فی ظلام اللیل وهذا الظلام واللون الأسود المسیطر علی فضاء القصة یزید الشعور بالظلم، ویبعث مشاعر الغضب فی نفس الإنسان باختلاطه مع احمرار دماء المقتولین الأبریاء.

الزمان فی هذه القصة الکلاسیکیة الواقعیة والبعیدة عن الخیال تسلسلی خطی نجد فیها تتابع الأحداث واحدة تلو أخری، وتبدأ من قصة ابتعاد الصدیقین عن بعض وتنتهی برقود الصدیق الشریف سابقا والمدمن حالیا فی المارستان وموت زوجته وطفلته وتشرد أولاده.

الزمان والمکان فی القصة غیر محددین فإن الکاتب نزل فی منامه مدینة لا یعرف اسمها ولا یعرف موقعها ولا یعرف فی أی عصر هو، وهذا یوحی بالشمولیة خاصة أنه یصور الناس ناطقین بأنواع اللغات وظن أن الدنیا قد استحالت إلی المدینة: «کأنی هبطت مدینة کبری لا علم لی باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذی یعیش أهلها فیه، فرأیت أجناسا من البشر .. ینطقون بأنواع من اللغات لاحصر لها، فخیل إلیّ أن الدنیا قد استحالت إلی مدینة..»(المصدر نفسه: ٩۶). ثم أکمل هذه الرؤیة العالمیة إلی الظلم والفساد بذکر تاریخ یوم استفاقته من الرؤیا التی سردها وذلک یتزامن إعلان الحرب العالمیة الأولی.

الحوار

بنیة الحوار فی قصة «الیتیم» علی المونولوج فإن الشاب هو المتکلم وحده من بدایات القصة إلی نهایاتها، إلا فی بعض الفقرات التی تدور بینه وبین الکاتب حوار قصیر وکذلک نجد فی بعض الفقرات حوار نفسی: «و قلت إن الفتی مریض ولا یوجد بجانبه من یقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلابدّ لی من المصیر إلیه»(المصدر نفسه: ١۴).

الحوار فی قصة «الحجاب» دیالوج لکنه أشبه إلی المونولوج لأن المؤلف أطال فی الإجابة علی سؤال صدیقه: «أتنکر وجود العفة بین الناس؟»(المصدر نفسه: ۴۵) فکأنه یلقی محاضرة فی مجال العفة والحجاب، وله فی قصة دور رئیسی وفاعل إذ ینقل المؤلف آراء جمة فی مجال الحجاب والعفة بالإفادة من هذه الآلیة؛ آلیة الحوار الذی یشبه الخطاب لطول حدیث المؤلف.

وفی قصة «العقاب» یدخل الکاتب بعد وصف المشاهد کلها فی حوار نفسی حیث یدرس القضایا التی شاهدها فی منامه وإنه بذلک یدخل فی صراع داخلی بین واقع الحیاة و بین الظروف المثالیة ویهدف بذلک تقبیح الظلم والإنذار بالنسبة لنتائج الصمت مقابل الظالم.

المنظور القصصی

«إن ما یرمی إلیه النقاد من وراء مصطلح الرؤیة السردیة، کشف الطریقة التی تدرک بها الحکایة من قبل الراوی، وبعبارة *تودوروف*: «یعکس العلاقة بین ضمیر الغائب (هو) فی القصة وبین ضمیر المتکلم (أنا) فی الخطاب؛ أی العلاقة بین الشخصیة الروائیة وبین السارد»(زوزو، نقلا عن تزفتان تودوروف، "مقولات السرد الأدبی").

إن القصص الموضوعة فی کتاب العبرات تم سردها من الرؤیة الداخلیة فالراوی هو المشارک أو المصاحب لبطل القصة والشخصیات داخلها.

فضلا عن ذلک فلسرده میزات أخری فنجده فی قصة «الیتیم» لا یصف لنا مشاهد من حیاة أحد مواطنیه، بحیث یصور لنا الأحداث ویسمعنا حوارهم فیجعلنا نتابع الحدث متزامنا مع وقوعه حتی نصل مع بطل القصة إلی نهایات أمره؛ بل یحکی ما حدث فی زمن لم یمض علیه إلا قلیلاً ویبنی أسلوبه علی حکایة الحدث من لسان بطل القصة إن صح التعبیر عنه بالبطل ومن أسلوبه أنه بنفسه داخل القصة، ویؤدی دور سامع الأحداث والذی یذرف العبرات أسفا علی ما فات ونأخذ علی الفتی أنه ترک نفسه کالریشة فی مهب الحوادث، ولم یحزم أمره ویقاوم ولا یروقنا هذا اللون من ألوان الحب المستسلم الضارع والمستکین الخاضع.

وفی قصة «الهاویة» لا نجد للمؤلف وهو الذی یلعب کالعادة دور الصدیق الراوی له، دورا أساسیا فلا یمثل دور المرشد کما فعل ذلک فی قصة «الحجاب»، بل یکون سامعا ومشاهدا للوقائع والأحداث، ویستغنی عن النصح الکثیر والإرشاد المتتابع بذکر مصیر هذا الرجل الشقی المدمن علی الخمر کی یعتبر الآخرون.

الصراع

إن الصراع فی قصة الیتیم دائر بین القدر والاختیار وبین الفقر والغنی، وبین السعادة والشقاوة، فنری الشاب الفقیر فی صراع مستمر مع ما رآه مقدرا له بسبب یتمه وفقره فأصبح فاشلا فی هذا الصراع، وترک الساحة لیستقر فی أحضان الموت ورأی مصیره المرّ نتیجة فقره ویتمه؛ ولکن یجد المتلقی بمراجعة قصة ابنة العم العائشة نعیم التروی والرفاهیة أنها أیضا خطت خطا ابن عمها إلی هوة القبر مما یجعل المتلقی یری الذنب علی عاتق فقر المجتمع العقیدی الذی یری السعادة فی الغنی، ویری الصالح الغنی المتنعم.

وفی قصة الحجاب نجد الصراع صراعا بین التقلید والتجدد، وبین الالتزام بالقیم الدینیة الاجتماعیة والأفکار الغربیة المخالفة للقیم الاسلامیة فالصراع خارجی.

ولانجد فی القصة صراعا بالمعنی الحقیقی للکلمة فلا یستفیق الزوج من ضلاله إلا فی نهایة القصة، وبعد موت الزوجة والطفلة الرضیعة ولکن لا تؤدی به هذه الاستفاقة إلی تغییر فی سلوکه وتشجیعه لإعادة بناء الأسرة، بل إلی التقید بالأغلال فی المارستان فالمؤلف یدع شخصیة قصته یسقط فی هاویة الإدمان. ثم یأسف علی ما فات ویشفق علیه: «فوا رحمتاه له ولزوجته الشهیدة ولطفلته الصریعة ولأولاده المشردین البؤساء»(المصدر نفسه: ٨١). ولانأخذ علیه ذلک لأنه رسم لوحة من واقع الحیاة لدی بعض الناس الذی لا یمنعهم شیء من الاستمرار فی سبیل الخطأ حتی یلاقون الموت، حیث لا سبیل إلی الخلاص، فیمکننا القول بأن الصراع فی هذه القصة یدور بین الخیر والشر وبین الإنسان والظروف المحیطة به الداعیة له إلی الشر والهلاک.

الخیال

إن *المنفلوطی* یتخذ عادة مادة قصته من الواقع ویکتب قصته منطبقة علی معاییر القصة الواقعیة، فلا نری فی أعماله لونا للخیال ومع ذلک نجده فی قصة العقاب التی تندرج ضمن القصص الرومانسیة استعان بقوة خیاله، حیث توسع مدی خیاله فی نهایات هذه القصة إذ نطق من لسان المریخ الهابط إلی الأرض الغاضب من مشاهدة ما حدث للأبریاء الثلاثة المقتولین ضیما وظلما وشکا قوة الظالم وضعف المظلوم، وقدرة الغنی

ومسکنة الفقیر وخیانة الأمراء عهد الله وطمع القضاة وضنّ زعماء الدین بالنزر القلیل علی الفقراء وإعانة الناس للظالمین، ثم رأی مصیر کل هذه إلی الفساد ودعا علی الأرض - التی تضم أرجائها الظلم الجائر- بالخراب: «لتسقط العروش، ولتهدم المعابد، وللتتقوض المحاکم ولیعم الخراب المدن والأمصار والسهول والأوعار والنجاد والأغوار ولتغرق الأرض فی بحر من الدماء یهلک فیه الرجال والنساء والشیوخ والأطفال والأخیار والأشرار والمرجمون والأبریاء «و ما ظلمهم الله ولکن کانوا أنفسهم یظلمون»(المنفلوطی: ۱۱۲).

النظرة الکینونیة لدی الکاتب

السعادة والشقاء

سبق الذکر أن نظرة *المنفلوطی* تتصف بالتشاؤم قبال الحیاة إذ عاش ظروف التی أصیب بلده باستعمار الأتراک ثم الفرنسیین وبدا بریق السعادة له بعیدا عن المتناول، وهذا التشاؤم ما نجده واضحا فی القصص الذی نحن بصددها أیضا حیث نراه فی قصة الیتیم ینظر إلی الحیاة نظرة متشائمة؛ وکأنه یری مصیر الخیر إلی العدم فکلما یتحدث عن الأحباب المتضلعین علی الحب والکرم والبر والإحسان والعطف والحنان، سرعان ما یداهمنا بموتهم. فالأم والأب وهما مصدرا الحب والشفقة علی الأولاد میتان من بدایة الأمر فی السنوات الأولی من حیاة الشاب ولاعجب فإن عنوان القصة «الیتیم».

ثم یتوفی العم الذی کان یدعمه ویحمیه وکأن المآسی ملمة بالیتیم وإذا کان ثمة ضوء أمل فی الحیاة فإنه انطفا قبل أن یفید. وقمة یأس الکاتب أنه یظن سعادة الیتیم فی نزوله إلی غیاهب القبر بعد أن لم یتمکن منها فی ضیاء القصر: «وهکذا اجتمع تحت سقف واحد ذانک الصدیقان الوفیان اللذان ضاق بهما فی حیاتهما فضاء القصر، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر».

ونجد نفس المصیر للخیر فی قصة «الهاویة» حیث یری الکاتب المتشائم سبیل الحب والحنان والطهارة إلی الموت إذ نری الزوجة الحنونة الصبورة تموت والطفلة البریئة تموت بعدها وما یبقی هو التشرد والجنون.

العلم والعلماء

وهذا التشاؤم واضح المعالم فی نظرة الكاتب إلى العلم والعلماء أيضا نظرة متشائمة حيث يقول من لسان الشاب فی قصة «اليتيم»: «المدرسة فی هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة والعلم فی هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون، لا منحة يمنحها المحسنون»(المصدر نفسه: ٢١).

وكذلک نجد الكاتب يسیء الظن بالأطباء أيضا وهذا ما شاهدناه فی قصة أخرى له. إنه يذم الأطباء كلما يأتی الدور أن يتحدث عنهم وفی قصة الهاوية أيضاف فيضربهم فيها بسياط الذم قائلا: «لم تجد طبيبا يتصدق عليها بعلاجها، لأن البلد الذی لايستحی أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذی قتله، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق»(المصدر نفسه: ٨٠).

العالم الغربی والثقافة الغربية

وبالنسبة للعالم الغربی والخلق الغربية فلا يرحب بها *المنفلوطی* ويراها شرا أصاب أبناء شعبه، فنجد قصة «الحجاب» توحی بانطباع سلبی لدی الكاتب تجاه الغرب حيث يكتب: «ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، وذهب بقلب نقی طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها والنقمة على السماء وخالقها ... وعاد برأس كرأس التمثال المثقَّب لا يملؤها إلا الهواء المتردد»(المصدر نفسه: ٤٣).

وبالنسبة لرؤيته إلى موضوع الحجاب نجده يطلعنا على تناقض فی أفكاره حول هذه القضية، وذلک رغم ذوده عن الحجاب، فيدافع عن الحجاب حينا ويراه أساس العفة، ويرى جذور هذه العفة فی البله حينا آخر: «لا أنكرها(يقصد العفة)، لأنی أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين، ولكنی أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه»(المصدر نفسه: ٤٥).

الرجل والمرأة

بالنسبة لنسبة حظ المرأة والرجل من العقل والإدراک، فیعتقد الکاتب أن الرجل أوفر عقلا من المرأة: «لیست المرأة بأقدر علی إصلاح نفسها من الرجل علی إصلاحها». وبشکل عام خارج نطاق هذا المکتوب یعتقد *المنفلوطی* أن حظ المرأة من العقل أقل من الرجل، فیری أن من حکم الإنصاف والعدل أن یجعلوا عقاب الرجل فوق عقاب المرأة فیعلق علی قوله هذا قائلا: «ولکنه لم یفعل لأن رجاله ظلمة جائرون ولأن نساء ساذجات یصدقن الرجال فی أقوالهم»(حسینی: ۲۸۶).

و بشکل عام نجد من خلال مطالعة آراء الکاتب أنه یری المرأة المصریة ضعیفة ساذجة لا تستطیع امتلاک نفسها إذا برزت للرجال، ویری أن شؤون المرأة لابد أن تکون بید رجال أهلها. من جانب آخر یجب تثقیف الرجال وتعلیمهم المنهج الصحیح فی معاملة النساء حتی لا یتبرمن من الخضوع للرجال فی جمیع المجالات وإعطائهم الخیار فی إدارة شؤونهن مهما کانت! والرجل علیه أن یرافق المرأة أینما ذهبت لیحمیها حیال من یرید بها سوءا کما یراعی الشاة راعیها خوفا علیها من الذئب!

الإدمان وأسبابه

ولایتخذ المؤلف المتمثل فی شخصیة الصدیق ولا الزوجة ولا أحد آخر موقفا حاسما من ذلک الساقط فی هاویة الإدمان لإخراجه من الورطة، وقصاری ردود أفعالهم إزاءه الإشفاق علیه وتقدیم النصائح له والبکاء علیه وهذا ما یدلنا علی رؤیة المؤلف إزاء قضیة الإدمان أنه من سقط فی هذه الورطة. فمصیره لا محالة إلی الشقاء أو إلی الجنون ولا سبیل لإعانته وإعادته إلی الحیاة الطبیعیة والسبیل الوحید الممکن للنجاة أن لا یدنو الإنسان من هوة الإدمان. فإن زلت قدماه عندها فلا أمل فی النجاة کما قال الرجل ذلک: «وقد زلت قدمی عن حافة الهوة فلا قدرة لی علی الاستمساک حتی أبلغ قرارتها. وقد شربت أول جرعة من جرعات الحیاة المریرة فلابد لی أن أشربها حتی ثمالتها ولاشیء من الأشیاء یستطیع أن یقف فی سبیلی إلا شیء واحد، هو أن لا أکون قد شربت الکأس الأولی قبل الیوم، وما دمت قد فعلت، فلا حیلة لی فیما قضی الله»(المصدر نفسه: ۷۸).

أو كما قالت الزوجة: «أعلم أن طريق الشر واحدة، فمن وقف علـى رأسـها لابـدّ لـه أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها»(المصدر نفسه: ٧۴).

الظلم والعدالة

وقد تطرق الكاتب لجذور بعض الجنح وأسباب ارتكابها، فلربمـا ثبتـت الجنحـة ولكـن اختفت الأسباب الممهدة لها خلف حجاب يجب رفعه للكشف عن الحقيقة ومن ثم تحقـق العدالة فى الأحكام التى تصدر فى شأن المجرمين. فالأمثلة التى مثل بها كلها من ضروب هذه الجنح فالشيخ الهرم كان سارقا والشاب كـان قـاتلا ولكـن أى سـبب أدى بهمـا إلـى ارتكاب جريمة السرقة أو القتل؟ لم يفتش القاضى ولا الحاكم عـن هـذه الأسـباب فقضـيا عليهما بالعقاب دون أن يكون عليهما ذنب غير الاضـطرار والـدفاع عـن الشـرف وهـذا مـا يذكرنا به الكاتب أن ننظر إلى ماوراء الحقائق، وندرس الجذور عسى أن تختلف رؤيتنا إلى القضايا من هذا المنظار وعسى أن يختلف المجرمون ويصبح من بدا مجرما بريئا ومن بـدا بريئا مجرما.

أما بالنسبة للفتاة المرجومة بتهمة الزنا فمشهد محاكمتها ورجمها تطلعنا مـرة أخـرى على ضعفها ومكانتها الوضيعة فى المجتمع المصرى آنذاک، كيف يستطيع أحـد أقرباءهـا أن يلعب بمصيرها وبحياتها بكل سهولة ويسيطر على مالها ويخيَّر فى تعيين زوجهـا دون النظر إلى رغباتها وآمالها ورضاها.

الأسلوب والتقنيات

من مواصفات كتابات *المنفلوطى* الوصف الدقيق المطنب للمشاهد، فكأنها لوحة رسـام أو مسرحية وحتى الأضواء موحية بالجو الخانق المسيطر على القصة حيث الأزقـة والغـرف مظلمة أو منارة بضوء ضئيل.

وبالنسبة لاستخدام تقنية الرمز لانجد فى القصص المعنية فى هذه الدراسة رموزا، بـل هى من القصص الواقعية التى استمدت مغزاها من ساحة الواقـع ومما يحـدث فـى حيـاة الكثيرين ممن يعيشون على ظهر اليابسة فقراء بؤساء.

وقد أفاد الكاتب من تقنيـة الأنسـنة حيـث أنطـق المـريخ وجعلـه يهـبط إلـى الأرض ويغضب من ظلم الظالم ومسكنة المظلوم، ويبدو أن ما جعل الكاتب يختار المريخ من بين النجوم لونه الأحمر المتلائم مع احمرار دماء الشهداء والمتناسب مع الغضـب الحـاد «فـإذا هو المريخ يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ فی أفئدة الموتورين»(المصدر نفسه: ۱۱۰).

نتيجة البحث

وبعد عرض هذه القصص للدراسة نستنتج الأمور التالية:

للمونولوج دور فاعل فی قصص العبرات الموضـوعة، حيـث أفـاد *المنفلـوطی* منـه أتـم الإفادة لنقل الأفكار إلى المخاطب، ويتسع مدى فاعلية الحـوار فـی هـذه القصـص بحيـث تصبح هذه القصص لاسيما فی بعض فقراته أشبه إلى مقالات اجتماعيـة بـدل أن تأخـذنا معها فی فضاء خيالی قصصی، ننطبع فيه بطوابع فكرية لطيفة خفيـة تهـدينا إلـى دروس حياة عميقة. إن الكاتب يفضل أن يشير إلى هذه الدروس بأتم صراحة، بدل أن يلفهـا فـی أوراق الخيال الذهبية ويدعنا نفتح هداياه الفكرية بأنفسنا ويتم التلقی عنـد كـل مخاطـب حسب ميزاته الفكرية، فليس للمتلقی دور فی تفسير النص بل تقتصر القصة فـی ولادتهـا الأولية الوحيدة، إذ أعطانا الكاتب فكرته بشكل واضح دون أن نجد فی إدراكها صـعوبة ولا أن نواجه فيها أی عقد بحاجة إلى الحلّ.

لظروف البيئة ونفسية المؤلف أثر كبير فی قصـص العبـرات الموضـوعة إذ أن الكاتـب عاش مرحلة اجتياز التقليد إلى التجديد، وكان من أنصار تعديل التقاليد وضـرورة الالتـزام بها فی الوقت نفسه ويرى المشكلة فی سوء فهم الناس للتقاليد وابتعـادهم عـن حقيقتهـا ويعتقد أنهم لو عرفوها حق المعرفة والتزموا بها فيستغنون عن التجديد.

تتصف كتابة *المنفلوطی* بالإطناب، فهو عندما يصف شـيئا أو يشـرح أمـرا يـدقق فيـه ويتعمق ولا يدع جزء منه إلا يعطی وصفا دقيقا عنه، وهذا ملاحظ فی كل قصصه ولا فرق فی ذلک بين الخيال والواقع فإنه يصور الأخيلة تصويرا دقيقا مطنبا، وذلک ما نشاهده فـی وصفه لهبوط نجمة المريخ فی قصة «العقـاب» كمـا يصـور الواقـع مثـل تصـويره لشـدن السكارى فی بيت الرجل المدمن على الخمر.

اللون المسيطر على فضاء كل هذه القصص هو الأسود، والقضايا معظمها يحدث فى سواد الليل مما يوحى بانطواء الكاتب على الذات وتشاؤمه وهذا التشاؤم منه الخفى ومنه الجلى ومثله تشاؤمه بالنسبة للأطباء كما مضى ذكره.

الموضوع العام للقصص الموضوعة فى كتاب «العبرات» هو دراسة بعض الظواهر الاجتماعية المكروهة، من اليُتم إلى الإدمان على الخمر والإغفال عن الأهل، إلى سفور النساء وإطفاء غيرة الرجال وهناک موضوع سياسى-اجتماعى يتطرق إليه الكاتب فى قصة "العقاب" حيث يرسم لوحة من ظلم الأمير وقاضى المدينة ورجال دينها لأبناء الشعب الفقراء المضطهدين.

شخصيات قصص *المنفلوطى* هذه شخصيات ثابتة لا تتغير ولا تنبعث بدافع الوقوف فى وجه ظلم البيئة فيثورَ، ويقومَ بالإصلاح بل يقبل الضيم أو لا يجد سبيلا للخروج من سيطرة ظلم الظالم وجور الجائر، الوحيد الذى اختلفت بدايته عن نهايته ذاک الذى كان مدافع سفور المرأة ثم عاد عن معتقده إلا أنه مات إثر هذا التحول ولم يطق ثقل التغيير.

المكان والزمان فى بعض هذه القصص محددان وفى بعضها غير محددين، إلا أننا نعرف بحضور المؤلف فى القصة بصفته أحد شخصيات القصة أنها تحدث فى بيئة مصر وفى الفترة التى عاشها الكاتب.

هذه القصص مطبوعة بطابع الكلاسيكية الواقعية غير أن القصة الأخيرة تختلف عن أخواتها، فهى أقرب إلى الرومانسية منه إلى الكلاسيكية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

الزرکلی الدمشقی، خیرالدین. ۲۰۰۲م، **الأعلام**، بیروت: دارالعلم للملایین.

المنفلوطی، مصطفی لطفی. ۱۹۹۷م. **العبرات**، بیروت: مکتبة المعارف.

المنفلوطی، مصطفی لطفی. ۱۹۲۵م، **النظرات**، مصر: المطبعة الرحمانیة.

المقالات

اسماعیلی، لیلا. «**ترجمه و نقد العبرات**»، مشکوة النور، آذر و دی ۱۳۸۱، شماره ۲۰.

فنون النثر الأدبی فی العصر الجاهلی والإسلامی والأموی، ۲۰ أیار (مایو) ۲۰۰۹بقلم بلوافی مَحمد http://netct.in/more/255063_2/

«**مصطفی لطفی المنفلوطی والقضیة المصریة**» / **المنفلوطی.. کاتبا سیاسیا** ؛ محمد شبلی؛ مجله الجدید » ۱ أبریل ۱۹۸۲ - العدد ۲۴۶؛

http://www.noormags.com/view/fa/ArticlePage/

حسینی، محمد باقر. «**نقدی بر زن از نگاه منفلوطی و آل احمد**»، ادب عربی، سال۳، شماره ۳، زمستان ۹۰.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی